

أشكر القيمين على هذه الندوة لإتاحة الفرصة لتقديم التحية والاحترام لذكرى ميلاد طاغور العظيم، الرجل الذي قال فيه أحد أعدائه يوماً: انه أعظم بني البشر عالميةً وحناناً وكمالاً.

## رسالة طاغور في الإصلاح الاجتماعي

### الدكتورة ماري شهرستان

ولد رابندرانات طاغور في قصر غورونسكو<sup>1</sup> في القسم البنغالي من مدينة كالكتا في السادس من أيار سنة 1861، أسماه والدُه رابندرا أي الشمس، مستشرفاً بهذه التسمية ولادة كوكب سيهتي الناس بنوره؛ وها نحن اليوم في دمشق نحقل بذكرى مرور مائة وخمسين عاماً على ميلاده، ميلاد منارة الهند العظيمة والعالم لأن العباقرة لم يكونوا يوماً ملكَ أمتهم وحدها بل ملكُ الإنسانية جمعاء.

نشأ طاغور وتربى ضمن عائلة نصيرةٍ للعلم متأصلةً بالتراث والتقاليد الهندية وفي الوقت نفسه ضليعة في الفلسفات الغربية، شاركت في انبعاث الحركات الثورية الثلاث التي حصلت في البنغال والتي كان أولها حركةُ الإصلاح الديني، وثانيها حركةُ إحياءِ الأدبِ واللغة وتطويرهما، والثالثة كانت الأهم وهي يقظةُ الفكر القومي.

كان لهذا المحيط الثقافي الراقى أثرٌ كبيرٌ على نظرتِه إلى الحياة والكون والفن جعله يحترم التراث بالإضافة إلى الإرادة والتصميم على التجديد<sup>2</sup>. وكان تأثير والده بشكل خاص عميقاً وحاسماً في أسلوب تفكيره وسلوكه في الحياة<sup>3</sup>. فقد حرص على تعليمه بطريقة لا تتفق والقواعد السائدة؛ فعندما بلغ سن الثانية عشرة أخذهُ إلى مركز التأمل الذي كان قد أنشئ عام 1863 في أحضان الطبيعة، حيث تلقى هناك دروساً في العقيدة الهندوسية بكتبها الدينية وطقوس عبادتها وأناشيدها ودروساً في اللغات وعلم الفلك. وغرس الأب في نفس ابنه المفاهيم البنغالية التقليدية وحرك فيها القيم الروحية والمحبة والقدرة على تحويل الألم إلى فرح.. وفي رحلة إلى الهملايا اكتشف الجبال والغابات لدرجة اتحد فيها مع الطبيعة التي أصبحت بالنسبة إليه هي الوجودُ كله من أدنى مخلوقٍ

1 طاغور، "سلة الفاكهة" ترجمة بديع حقي، ص 9.

2 المصدر: المجلة الفصلية للتربية المقارنة (باريس، اليونيسكو، المكتب الدولي للتربية) جزء 24.

3 المصدر السابق.

في عالم الحيوان والنبات والجماد إلى أضخم نجمٍ يسبح في الفلك اللامتناهي<sup>4</sup>؛ وبعد تلقيه التجربة الدينية، أدرك وحدة الوجود وأنه هو نفسه جزءٌ لا يتجزأ من هذا الكل.

وفي تحليل لصديقه الحميم الروائي الفرنسي الكبير رومان رولان يقول:

هذه المشاعر العميقة بالاتحاد مع الطبيعة رافقت أفكارَ طاغور وأفعاله وقناعاته طيلة أيام حياته.. وفي ذكرياته عن حيواته السابقة، يصف تجربته تلك كتجربة فريدة من نوعها حظي بها ذات يوم في كلكتا بينما هو يشاهد الحياة تجري من حوله صاخبةً، دافئةً ونابضةً.

وعندما أصبح في الثامنة عشرة من عمره بدت البشرية بأكملها بالنسبة إليه "كائنًا واحدًا"، وبداله أن كل فردٍ يشعر بهذه "الوحدة" في داخله. وكان يرى الله، الكائن العظيم، حاضراً على الدوام فوق الإنسان الفرد.

هذا الإحساس بالرابط العميق مع محيطه حباه بمقدرة حادة على الملاحظة والمساهمة والمقاسمة، وبهذا الصدد يقول طاغور نفسه:

"منذ فجر تاريخنا، أدخل الشعراءُ والفنانون ألوانَ أرواحهم وموسيقاها في إطار الوجود، ومن ذلك تعلمتُ علم اليقين أن الأرضَ والسماءَ منسوجتان من أوتار روح الإنسان، ومن الروح الكونية في الوقت نفسه، ولو لم يكن هذا الأمرُ صحيحاً لكان الشعرُ مضللاً والموسيقى وهماً، ولأدخل العالمُ الأبكُم قلبَ الإنسان في صمتٍ مطلق. السيد الأعظم يعزف، الإلهام منه، لكن الأداة هي روحنا التي بواسطتها يفجرُ أناشيدَ خلقه؛ لهذا السبب، تيقنتُ أنني لست مجردَ غريب أو عابرَ سبيلٍ يرتاح في نزلٍ على هذه الأرض في درب مسيرتي في الوجود، بل أنا أعيشُ في عالمٍ ترتبط حياتهُ بحياتي ارتباطاً وثيقاً وهي أصرةٌ أبدية سرمدية بيني وبين العالم".<sup>5</sup>

"إنَّ ذلك ليس مجرد تهللٍ مرح تجاه هذه الوحدة الأساسية لأنها استلزمت منه يقظة كبيرة وإحساساً عميقاً بالمسؤولية. وأن عليه رسالةً فكريةً تجاه أمته وتجاه الإنسانية استوجبت منه أن يناضلَ بما أُوتِي من مقدرة ومواهب"<sup>6</sup>.

ويتابع الأديب رولان واصفاً صديقه طاغور بقوله:

"هاديءُ النبرة متناغمُ الحركة، عيناه سوداوان لماعتان تعكسان جلاله الصافي، إن اقتربت منه فكأنك تدخلُ هيكلًا، فتخاطبه بصوتٍ خفيضٍ! إنك تلاحظ في وجهه النبيل

<sup>4</sup> طاغور، "سلة الفاكهة" ترجمة بديع حقي، ص 16.

<sup>5</sup> رومان رولان 1915

<sup>6</sup> المصدر السابق

من خلال التناسق وموسيقى الخطوط ذلك الألم الذي يسيطر عليه كما تشاهد رجولة فذة تتحدى معارك الحياة".

كانت أسلحة طاغور في كفاحه وجدانه و مواهبه الفطرية و ثقافته المكتسبة التي جعلته ينتج أدباً خصباً يقدمه إكسيراً لحياة مواطنيه، فهذا هو يقول في هذا الإطار:

"إنني أشعر بالاضطرار إلى كتابة القصص واحدة تلو الأخرى حول حياة المتواضعين الخاملين من الناس وحول مسائل ذات دلالات صغيرة بسيطة وواضحة!"

ودفعه الشعور بالمسؤولية إزاء مضامين ودلالات ما يبدع إلى أن ينوع في الأشكال الفنية بمقدار حاجته إلى هذا الشكل أو ذاك، فكتب الشعرَ والرواية والقصص والمسرحيات والمقالات والبحوث الفلسفية والعلمية كما كتب الأغاني والألحان ورسم اللوحات الرائعة. وامتلت أعماله بالأفكار الواقعية ذات المحتوى الاجتماعي الصرف، وكان مقتنعاً أن الأدب والفن ينبغي ألا ينفصلا عن حياة الشعب فكان يتوجه للمواضيع المستمدة من شعور وآلام أبناء مجتمعه، فيقول:

"أنا لا أعرف الطريق إلى عالم الواقع- ما دام هناك رث الثياب والفقير والجائع - فعلياً أن أقدم لهم الكثير، إنني أسرع دوماً نحوهم عندما أسمع نداءاتهم".

أرسله والده إلى بريطانيا لدراسة الحقوق لكنه عاد دون إتمام الدراسة لميله الشديد إلى الأدب، ولكن السفر ساعده في الاطلاع على حضارة الآخرين وجامعاتهم وأدبهم وفنونهم فأغنى ثقافته وتطورت أفكاره ما ساعد في تدفق مواهبه وإبداعاته العملية. وقد زار لاحقاً معظم دول العالم الأمر الذي كان له أكبر الأثر في اتساع أفقه، وتحرره، وانشغاله بجملة من القضايا المعاصرة مثل: الحرب والسلام، وتحرير المرأة، وتنمية الريف ومحاربة الفقر، ومكافحة النزعات الطائفية والعنصرية، خصوصاً أنه التقى في كل تلك الدول بخيرة مبدعيها، إضافة إلى قادتها وساستها، وتناقش معهم، مستلهماً منهم تجاربهم الثرية وفلسفاتهم الخاصة.

كان طاغور في جولاته ورحلاته يرى الداء العضال الذي ينخر في هذا البلد أو ذاك، كما يرى التربة الطيبة في أعماق النفوس مما يبشر بالخير. وبعد أن فهم جيداً حضارة الغرب على حقيقتها أخذ يقارن بينها وبين حضارة الشرق. فقال في إحدى محاضراته في الصين: "حين أرقب الصينيين لا أستطيع أن أمنع نفسي من الإعجاب بالمعجزات التي تأتيها أصابعهم السحرية، وأنادي دائماً: يا لعظمة هذه الحضارة فهي ليست الحضارة التي يسميها الغرب "تقدماً" إنما هي الحضارة الصحيحة السليمة". فهو ينبذ من حضارة الغرب سيطرة المادة ويرحب بما ينير العقول. ولعل سخط طاغور على سيطرة المادة

يرجع قبل كل شيء إلى ما يتبع ذلك من تهديد السلام ونشوب الحرب ووحشيتها<sup>7</sup>. وإبان الأيام السيئة لروسيا كان ينتظر الأخبار يومياً وكان يقول: "سعادتي العظمى ستكون في نصر روسيا! وبإعجاب عظيم لاحظ نظام التعليم السائد في روسيا إبان جولته عام 1930.

بعد وفاة والده تتكبد مهمة إدارة الممتلكات العائلية في بنغلادش، واستقرَّ فيها مدة عشر سنوات كان يقضي معظم أوقاته فيها وهو على احتكاك دائم ومباشر بالقرويين البسطاء، ما جعله يتعرّف على مسائلهم الاجتماعية. فاكتشف الحالة المتردية للطبقات المسحوقة ومدى معاناة تلك المناطق من الفقر وشح الخدمات، ومدى انقسام طبقة الصفاة على نفسها لتضارب مصالح أفرادها، فقرر أن يعمل شخصياً على إيجاد بعض الحلول، معتمداً في ذلك على مجموعة من الشباب المتطوعين المستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل الصالح العام. وقد نجح هؤلاء في إنشاء الطرق والمدارس وخزانات المياه ومحطات الصرف الصحي وتحسين الإنتاج الزراعي، وتنشيط الصناعات الريفية فضلاً عن نشرهم للموسيقى الشعبية وسط الناس، الأمر الذي أعاد إلى القرية حياتها ورونقها.

لقد كان على الدوام يأمل في التغلب على معاناة الشعب الهندي وقضاياه، وأيقن أن العلاج يكمن في المعارف العلمية، لأننا في رأيه: "نتقدم باستمرار باتجاه تحقيق الوجود الكوني في مظهره الفيزيائي بفضل الدراسة العلمية والمنطقية". فقد حارب بحدة الذهنية التقليدية العمياء التي كانت تشل تطور الهند باتجاه الحداثة.

ونظراً لقناعته بان التربية والتعليم يشكلان المرحلة التأسيسية للإصلاح الاجتماعي، فقد افتتح مدرستين وانتهج طريقة جديدة في التعليم ونبذ الآلية التي تدرج عليها المدارس وفقاً للنظم التربوية، فقد أراد أن تكون الصلة بين المعلم والتلاميذ صلة روحية عامرة، كما أراد أن يتدفق الحب في هذه البيئة وأن تخرج منها أنغام الموسيقى وآثار الفن الجميل فيمتلئ جو المدرسة بالوئام والإقبال وبالعلم الصحيح<sup>8</sup>.

أنشأ مدرسة متميزة أسماها "مرسى السلام أو دار السلام" بدأها بخمسة تلاميذ في عام 1901. وأرادها أن تكون على غرار الصومعة التي وجدت في الهند القديمة لكنه سعى من خلالها إلى تطبيق نظريته الجديدة في التربية والتعليم عبر مزج التقاليد الهندية العريقة بالتقاليد الغربية الحديثة، وكان دورها ترقية القيم العالمية وتعليم البحث عن الحقيقة والتسامح. فقدّم فيها تجاربه الروحية وقناعاته الفلسفية ونقل رسالة سلام عالمية.

أما أساتذة دار السلام جميعهم فقد كانوا من الشخصيات اللامعة إذ اصطفاهم من جميع أنحاء الهند والعالم فاستاذ الفنون كان أعظم فنان في الهند الحديثة وأستاذ اللغة

<sup>7</sup> د. لطفي فام - ص 84 - عن كتاب "طاغور شاعر الهند الملهم" - دار نينوى.

<sup>8</sup> الدكتور يحيى الخشاب، عن كتاب "طاغور شاعر الهند الملهم" - دار نينوى، ص 42

السنسكربتية هو فرنسي يعد أعظم حجة في العالم لهذه اللغة . وهناك أستاذ كان فيما سبق نائب رئيس المعهد الملكي في إيطاليا كما ضمت الجامعة أساتذة من مختلف الشعوب من ألمان وانكليز وفرنسيين وصينيين ويابانيين.

تحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى جامعة باسم "الجامعة الهندية للتعليم العالمي" "فيسفا بهاراتي", وأصبح لها روحٌ وتقاليدٌ خاصة جعلت منها نمطاً فريداً من الجامعات.

كما أنشأ لها توعماً آخر لا يقل عنها مكانة وشهرة أسماها "دار الثروة" أو دار إعادة الأهلية الريفية وقد أسسها لتكونَ مركزاً لإصلاح الريف بالقرب من "دار السلام" ليقينه أن النبض الحقيقي للهند هو في أريافها. ومن أهم مبادئ التربية التي كان يدين بها إيجاد الصلة الوثيقة بين معاهد العلم وبين المجتمع الذي أقيمت فيه. وكانت التنظيمات المجردة في رأيه سفسطة وهراء عديمي النفع ما لم تطبّق تطبيقاً علمياً وعملياً على الحالة الاقتصادية والمشاكل الاجتماعية بشكل مباشر. ووظيفة الجامعة في رأيه لا تنحصر في الكتب والمحاضرات فحسب وإنما في جمع المعلومات والإحصاءات الخاصة بالمجتمع الذي تقوم على خدمته, لا سيما الريف, واتخاذها أساساً لحل مشاكله بأحدث الطرق الفنية

وكان من واجب كل معهد من معاهد الأرياف أن يجمع حوله القرى المجاورة وأن يربط كل نشاطه الاقتصادي بها. فالإسكان والصحة والرقي بالمستوى الفكري والخلقي للقرى, كل ذلك وغيره ينبغي أن يكون هدفاً من أهداف النشاط الاجتماعي للمعهد, كي لا يبقى جزءاً منعزلاً عن العالم بل عالماً في نفسه, مكتفياً بذاته مستقلاً غنياً متجدداً في حياته, يجذب نحوه مجموعة من القرى, ويربط فيما بينها برباط من التعاون والتعاطف<sup>9</sup>. كما وجّه الطلاب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم وأعطاهم كل شيء إلا الترف. فلهم مزارعهم وبريذهم ومستشفياتهم وحوانيتهم, وكان لهم مطبعتهم ومكتبتهم التي كانت أغنى من مكتبة كالكتا العامة. وكان على الطلاب أن يذهبوا مساء إلى القرى المجاورة ليقوموا بالتدريس في المدارس الليلية للطبقة الكادحة. ثم أخذ لاحقاً يعمل على تشغيل العاطلين عن العمل وتأسيس الجمعيات التعاونية<sup>10</sup>

ويربط طاغور الناحية الاقتصادية بالتربية ويرى:

أنّ المدرسة من واجبها أن تقوم بزراعة الأرض وتربية الماشية حتى توفر الغذاء لها ولتلاميذها, وعليها أن تعمل على إنتاج الضروريات بأحسن الوسائل وأجود المواد وأن

<sup>9</sup> محمد كامل النحاس ص 172 عن كتاب "طاغور شاعر الهند الملهم" - دار نينوى.

<sup>10</sup> ليلي الصباغ ص 227 عن كتاب "طاغور شاعر الهند الملهم" - دار نينوى

تستعين على ذلك بالعلم وعليها أن تقوم بالتصنيع على أساس تعاوني يربط بين المدرسين والتلاميذ برباط حي نشيط من الحاجة.

ولما كان طاغور شديد الإيمان برسالته في التربية والتعليم أخذ على عاتقه مهمة تثقيف الأطفال بعد دراسة معمقة لأنفسيتهم بحيث لا ينفرون منه. فأتاح لهم الحرية والتعبير الخلاق والعلاقة المباشرة بحياة الجماعة<sup>11</sup>.

كانت فلسفة طاغور في التربية مشتقة من فلسفته في الحياة وتتطوي على أربعة مبادئ وهي:

المبدأ الأول: الحرية ويقصد بها تحرير الناشئ من طغيان الغريزة والنزعات والميول الحيوانية والسمو بالنفس إلى أعالي المثل التي تدفعه إلى التحليق في الأجواء الصافية النقية.

المبدأ الثاني: التعبير الذاتي عن طريق الفنون الجميلة بشتى أنواعها والصناعة والأعمال اليدوية. كما نادى بوجوب تهذيب العاطفة عن طريق الشعر والموسيقى والغناء والرسم.

المبدأ الثالث: الاتصال بالطبيعة وهو الذي حدا به إلى اتخاذ الغابة والهواء الطلق مقراً لجامعته وللمعاهد والمدارس التابعة لها. ووفق فلسفته, يؤدي هذا الاتصال إلى إكمال النواحي العقلية والجسمية والروحية لحياة طلابه, وفي هذا الإطار كتب يقول:

"أنا أعتبر هذا جزءاً من التعليم لأبنائي الطلاب, وذلك لكي اجعلهم يدركون حق الإدراك بأنهم يعيشون في نظام حياتي تعد فيه الأشجار حقيقة جوهرية, ليس فقط لتوليد اليخضور (الكلوروفيل) واخذ غاز الفحم من الهواء ولكنها كائنات حية".

وفي رأيه ينبغي أن نبتعد عن الطفل الكتب التي تحوي معلومات جافة وأن نحرره من قيد الجلوس في صف لا يُسمح له فيه أن يتصل عقله بأي شيء آخر؛ ويقول: "ليس من الضرورة الملحة أن يفهم الأطفال كل شيء وفي أدق التفاصيل, فما هم بحاجة إليه هو تيقظ العقل وبنية ذهنية سليمة", وهنا نذكر الفيلسوف الفرنسي مونتيني بقوله "أفضل عقلاً رشيداً عن عقل مليء بالمعلومات". لكنه يؤكد على بناء الشخصية المتينة بقوله: "إنني أعامل الأطفال باحترام وأكثف عقليتي حسب عقليتهم وأدعهم يعتقدون أنهم هم الذين يتعلمون بأنفسهم ولست أنا معلمهم, وبهذه الطريقة ينشؤون معتمدين على أنفسهم". لكن بما أن الورد ينمو بالعناية والشوك ينمو بالاهمال, فهو لم يشأ أن يتركهم للطبيعة دون هاد معهم أو مرشد ودليل كما أراد روسو عزل الأطفال عن المجتمع خشية على طبيعة الناشئ الطيبة من أن يلوثها الشر الذي يزخر به المجتمع, وإنما أنشا لهم مدرسة واختار

<sup>11</sup> علي شلش, ص 112 عن كتاب "طاغور شاعر الهند الملهم" - دار نينوى

بقعة جميلة وسط الطبيعة من بقاع الريف واتي لهم بمعلمين متنوعي الاختصاصات ليعيش هؤلاء جميعاً بين جمال السماء وحفيف الأشجار وتغريد الطيور .

المبدأ الرابع: العلاقة بالمجتمع, وعلى الأخص موضوع التعاون, فيؤكد في مقالة له أن: "الإنسان يفقد قوامه الصحيح حين يفشل في الاتحاد مع زملائه البشر اتحاداً تاماً. فالإنسان الكامل هو الشخص الذي عنده هذه الصلاحية للاتحاد أما الفرد الوحيد المنعزل فهو ليس إلا كائناً مبتوراً".

وأراد طاغور لمدرسته أن تكون بوتقة تنصهر فيها الأجناس والأديان والمذاهب, حتى يشبب أطفالها وقد خلت قلوبهم من أي نوع من أنواع التعصب والتحزب. فإننا نستطيع أن نتلمس في الفلسفة التربوية لطاغور تقديساً لحرية الطفل ليتعلم ما يشاء من الطبيعة, وتقديساً للمحبة التي ينبغي أن تُسبغ على الطفل خالصةً من كل نوع من أنواع الكراهية والنعرات الطائفية. إن الروحَ الطبقيّة البربرية والتعصب الديني الممقوت لا وجود لهما عنده فالإلفة والمودة هي التي تسود علاقات الجميع.

وكان طاغور ينادي دائماً بضرورة تعليم الطفل جغرافية وطنه كي تبقى حدود أرضه المقدسة حية في وجدانه وكذلك تعليمه تاريخ أمته بكل مراحلها وتراثها بكل أطيافه حتى يفهم نفسه ويفهم بلاده وحتى يقوم تعليمه على أساس مكين من ثقافته الأصيلة دون إقصاء طيف أو تناسي حقبة.

وهو وإن أكدَّ على ضرورة قيام التعليم على أساس من التراث القومي وشخصية المجتمع نفسه, فليس معنى ذلك أن تُقطع الثقافة القومية عن الثقافات الأخرى بل تستفيد منها غذاءً عقلياً وروحياً ويمكن هضمه لا مجرد إضافات تظل عالقة في العقل أو الشخصية دون أن تندمج فيها اندماجاً كلياً.

كان طاغور يفاخر بأنه معلم قبل كل شيء.. والمعلم في اعتقاده بطل يشار إليه بالبنان, لأنه فنانٌ مبدع للحياة وللتعليم وهو المثل الأعلى الذي تستضيء بنوره الإنسانية. فإذا ما أهملته جماعة من الجماعات ولم تقه حقّه من الإجلال والاحترام سار وحيداً ووراءه شعلة تضيء فيستمدُّ منها الحكيم ويتجاهلها الجاهل.

وفي قضية المرأة, فقد عُرِف عن عائلة "طاغور" أنها لعبت دوراً أساسياً في معظم التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها البنغال خلال القرنين الماضيين, وعلى رأسها قضية تحرير المرأة البنغالية من أغلالها الاجتماعية, وبالتالي السماح لها بالتعلم والسفر بمفردها, وارتدائها لملابس ملائمة للخروج والقيام بأعباء العمل, فإن "طاغور" عزز من هذه الإصلاحات بمجرد عودته من رحلته إلى أوروبا, وذلك من خلال سلسلة من

الخطب والمقالات التي قارن فيها بين الاختلاط الحر ما بين الجنسين في إنجلترا، وعزلة البنغاليات اللواتي كن وقتذاك حبيسات البرقع والمنزل.

وقد تعزز هذا المنحى لديه أكثر حينما أرسلته عائلته إلى الأرياف لإدارة ممتلكاتها. إذ تعرف هناك بشكل مباشر على معاناة الريفيات وما يتعرضن له من ظلم، فألف سلسلة من القصص حول نظام المهور الظالم، وزواج القاصرات، ومآسي الأيتام واللقطاء، وحظر العائلات لاشتغال بناتها في التمثيل المسرحي، وغيرها من القضايا التي شجعت البنغاليات على رفع أصواتهن والمطالبة بحقوقهن. وفي هذا السياق يقول طاغور:

«إن الإبقاء على المرأة خلف البرقع ليس نتيجة لأنانية الرجل فحسب، بل هو ناجم عن الوقوع في حلقة مفرغة تجعل قسماً من النساء المغيبات يكررن إنتاج الفكر الذكوري والأعدار القديمة التي يقدمها هؤلاء الذين يقاومون تحرير المرأة بحجة المتطلبات التي تفرضها الواجبات المنزلية، ما يستلزم احتجابها والإبقاء عليها أسيرة الجدران مدى الحياة. ويصف طاغور هذا الأمر بأنه وضع شاذ تماماً، ينبغي البدء بالعمل على توعية المرأة والرجل على حد سواء.

لجأ طاغور إلى مختلف الأشكال الأدبية والبحثية والفنية ليعبر من خلالها عن نظرته الغاضبة بخصوص وضعية المرأة في العادات الهندية الظالمة، فطرح مأساة الأرامل المقتنعات بفضيلة حرق أنفسهن بعد وفاة أزواجهن في الطقوس الهندوسية القديمة؛ والأرملة وإن لم تحرق نفسها، ينبغي عليها أن تصبح بحكم المؤودة في قسم الحریم، ممنوعة من الزواج. محاصرة من جميع الجهات، تعاني على جميع الأصعدة النفسية والاقتصادية، لأن المجتمع والقانون لا يدعمانها. ويظهر التعبير الأقوى في روايته البيت والعالم عن هذه المعاناة في حديث عفوي للأرملة تقول فيه: "كلا، لا أريد أن أعود كامرأة إلى الحياة ثانية"<sup>12</sup>، فما كان عليّ أن أقاسي منه هو كاف لحياة واحدة فلينته هذا العذاب، من ذا الذي يستطيع احتمال ذلك مرة أخرى؟"

باعتماد طاغور أصبحت العادات ديناً ومذهباً لذلك يحث على البحث للكشف عن الحقيقة وللخوض في تجربة الحرية الفكرية فيقول في هذا الإطار: "إنني لم أصل إلى ديني الذي أعتنقه عن طريق القبول المستسلم فقد ولدت في أسرة كان أفرادها رواداً لديانة كبرى في بلادي، ولكن وفقاً لما جُلبت عليه من ميول فطرية كان مستحيلاً عليّ أن أقبل ديناً لا لشيء إلا لأن آبائي كانوا به يؤمنون. لقد نشأ عقلي في جو من الانطلاق والتحرر."

<sup>12</sup> العودة إلى الحياة ثانية هي مرتبة من المراتب في عقيدة التقمص ضمن العديد من ديانات العالم. والمراتب هي وفق الثواب والعقاب: النسخ: أي العودة إلى الحياة الإنسانية ثانية، والمسح هو التحول إلى حيوان، الفسخ هو التحلل، والوسخ هو التحول إلى حشرة، والرسخ هو التحول إلى حجر، والقش والقشاش أي التحول إلى أدنى مرتبة من الوجود.



"إن ديانتني هي ديانةُ شاعرٍ، فلا هي ديانة العابد المقتفي للسلف في طريق عبادته، ولا هي ديانة الفقيه اللاهوتي الذي درس الأصول والفروع وتعمق في الدرس، بل هبطت إليَّ ديانتني من خلال المسارب الخفية التي يأتيني خلالها الوحي بما أنظم من أناشيد، فلا فرق في النشأة وفي طريق النمو بين حياتي الدينية وحياتي الشعرية، والعجيب أن تزدوج الحياتان في نفسي منذ الصغر على هذا النحو ويبقى ازدواجهما سرّاً مكتوماً عني طوال هذه السنين".

رفض طاغور التقشف الديني ويقول بهذا الصدد: "الديانة ليست شيئاً يمكن أن يُجزأ في المقاييس اليومية أو الأسبوعية مثل توزيع المواضيع المختلفة في المنهج الدراسي. إنها حقيقة لوجودنا الكامل وشعور لصلتنا الروحية مع السرمدية".

ومن واجب كل شعب وكل جنس أن يتعهد ويرعى شعلة المصباح الروحي الذي يؤدي دوره في إنارة العالم.

ويرى طاغور بأن الديانة الحقيقية تركز على دوافع الشخص في السلوك والأخلاق أكثر من التقاليد الطقسية.

كانت فلسفة طاغور فلسفة الأمل والثقة بالإنسان، المبنية على تفتح روحه، وتطور وعيه وتحقيق طاقاته. ولهذا فقد ارتبطت المثالية الإنسانية عند طاغور بالعمل والتطبيق، وكان هو نفسه مثلاً لكل مبدأ أعلنه أو فكرة نادى بها.

فالأخلاق عنده لا تتقيد بحواجز الشرائع الصارمة، بل هي عمل مبدع يتم على الذات، كما وعلى الأشياء، فيحرر المعاني الكامنة في الطبيعة، ويطلقها إلى ما وراء حدود الخوف والقلق. إن تجلي الجمال الكامن في الكون والإنسان يثبت حقيقة السلام، لا الصراع، والمحبة، لا البغضاء، والوحدة، لا التفرقة وهكذا، "ندرك أن الإبداع هو التناغم الأبدي بين المثال اللانهائي للكمال والاستمرارية الأزلية لتحقيقه؛ يسمى طاغور هذا المثال بـ"ديانة الشاعر"، لأنه مثال يُفلى من الاعتقادات المتصلبة والطائفية. فهو مرن وغير محدود، ولا يريد تقييد اللانهائي وترويضه من أجل مصالحنا، بل يسعى بالأحرى لمساعدة وعينا على الانعتاق من المادية.

ويعتقد طاغور أن العدو الأكبر للهند موجود في الهند نفسها وذلك في الخرافات العمياء وتآليه التقاليد والعادات وفي الديانة الكاذبة والشقاء الكبير الذي يمسك بتلابيب الشعب الهندي. وقد قام بهجوم عنيف في مقال له عام 1911 على النظام الطائفي في المجتمع الهندي موضحاً بأنه يحطم المواطنة ويوهن الحيوية الروحية ويعطل العقد الاجتماعي

وقال في ذلك: "نهضة الشعب الهندي من جديد في رأيي تعتمد مباشرة ولعلها كلياً على إزالة هذه الحالة".

حاول طاغور أن يحلّ الخلافات الموجودة بين أبناء الهند ومحاربة كل أشكال التعصب الإقليمي وجعلهم ينظرون إلى الهند كأم لكل الولايات المتخاصمة... كما أحسّ بالبلبلّة الفكرية في مفهوم الدين والوطن على حساب مصلحة البلاد، فرفع صلاته من أجل أمته:

في جنة الحرية تلك يا أبتى دع موطني يستيقظ

حيث العقل بلا وجل

والرأس ينتصب شامخاً

حيث لا تفصل الأسوار الضيقة المحلية

العالم إلى قطع صغيرة

حيث تتبع الكلمات من أعماق الحقيقة

والجهد الدائب يمد ذراعيه نحو الكمال

حيث جدول العقل الصافي لا يضل طريقه

في رمال صحراء العادة المتحجرة

حيث أنت تقود العقل إلى الأمام

إلى فكر وعمل دائمي الاتساع

في جنة الحرية تلك

يا أبتى دع موطني يستيقظ.

درس طاغور مشكلة حب الإنسان لوطنه دون تعصب وحبه للعالم اجمع دون أن يضيع قوميته. فيقول: "بدأنا نستشعر المد الآتي إلينا من الكون الشاسع... وتحت تأثيره أخذ الشعور بحب الكون يخرج بنا عن نطاق بلادنا ثم لا يلبث الشعور بالقومية أن يجذبنا إليها، وهكذا يتنازع اتجاهان متناقضان. فعلى أن نرسم طريقاً وسطاً يقودنا إلى الحياة القومية، وعندئذ يتبين لنا أنه بفضل نمو الوعي القومي نمواً سليماً، وفهم المواطنة على أساس قويم نستطيع أن نصل إلى الكونية، أي حب الكون جميعاً، ثم على ضوء هذه الكونية يرقى بنا الشعور بالقومية وبالمواطنة إلى الكمال".

يقول روبرت فروست: رجل الدولة في طاغور يظهر من خلال نزعة القومية وإسهامه في بناء الهند الحديثة, وأنا لا أستطيع أن أرى كيف يكون امرؤ ما عالمياً إذا لم يكن ثمة أمة ينتمي إليها"؟.

ولم تقف وطنيته عند حدود الهند، بل تعدت كتاباته حدود بلده لتعكس صدى العاملين على تحرير بلدانهم في جميع أنحاء العالم.. وقد خلق للهند عالماً واسعاً، وجعل من العالم كله بلداً واحداً. وهو الذي تحدث باستمرار عن وحدة الروح الإنسانية في كل زمان ومكان حيث كان يرى أن هذه الثقافات العنصرية هي اختلافات سطحية خلقتها التربة والمناخ.

لقد كرّس طاغور حياته للسلام، فشجب التعصّب والعنف، وكان يحرص يومياً على سلامه الداخلي، وعلى خلق السلام في محيطه. وهو لا يهرب من النزاعات، إنما يبحث عن حلها سلمياً.

بعد طاغور أصبح الغربيون يعتقدون بضرورة بناء صناع للسلام، مثلما كان طاغور صانعاً حقيقياً للسلام بكل ما في هذا التعبير من نبل، يبحث عن فن الحياة وينذر نفسه لدراسة قوانينها، مهتماً بالعاطفة والعقل بالمقدار نفسه، جاهزاً لمرافقة الذين يبحثون عن السلام.

عاش طاغور عظيماً ومات عظيماً استقبل الحياة فرحاً كما ارتقب الموت مستبشراً، وهو الذي نظم قصيدة في ريعان شبابه يقول فيها:

لا أريد أن أموتَ في هذا العالم الجميل

أريد أن أحيَا مع البشر في ضوء الشمس

في هذه الحديقة المزهرة وسط القلوب الحية

دعني أجدُ مكاناً، فعلى هذه الأرض تفيض الحياة دوماً

كم فيها من فراقٍ ولقاءٍ وضحكٍ وبكاء

دعني، دعني أبنى بيتاً عامراً

قدّم طاغور للتراث الإنساني أكثر من ألف قصيدة شعرية و25 مسرحية والعديد من الروايات والقصص وعشرات الكتب والمقالات والمحاضرات في الفلسفة والدين والتربية والسياسة والقضايا الاجتماعية وبحوث وكتب في علم اللغة.

كان طاغور أيضاً مصلحاً ثقافياً أجرى تحديثاً على الفن البنغالي برفضه كل القيود التي كانت تربطه بالأشكال الهندية الكلاسيكية. وجدد في الموسيقى، له أكثر من ألفي أغنية.

وإلى جانب عبقريته في الأدب اتجه إلى الرسم الذي احترفه في سن متأخر نسبياً وهو في الستين من عمره حيث أنتج آلاف اللوحات وأقام العديد من المعارض الناجحة أحدها في باريس.

بقي غزير الإنتاج حتى الساعات الأخيرة من عمره، توفي بسبب فشل عمل جراحي في السابع من آب عام 1941م، وهو في سن الثمانين.